تأويلات هي أقرب الى المناورة، الى توازن القوى، منها الى مبادرة. في مجموعة العناصر الايجابية، يمكن تلمُّس التأثير الواضح للسياسة السوفياتية الجديدة على بلدان القارة، التي أسرعت في اسقاط ايديولوجيا الحرب الباردة، المتبنّاة من قبل الولايات المتحدة ردحاً من الزمن، وهيمنت، من خلالها، على القرار الاوروبي الملتزم بسياسات مخالفة لقناعاته ولمصالحه. ويشار كذلك، في هذا الصدد، الى الاجماع النسبي الاوروبي على فكرة المؤتمر الدولي، وابراز اسرائيل والولايات المتحدة كحجر عثرة في سبيل تحقيق السلام في الشرق الاوسط. وعلى الرغم من ان احداً لم يكن يسميها مبادرة، وأكثر ما قيل عنها انها مجموعة أفكار في مرحلة الأخذ والعطاء نقلت المسألة الفلسطينية، بعد دعوة عرفات الى ستراسبورغ، من حالة التأمل الى عتبة الاستكشاف، فان من حسنات التحرّك الاوروبي الأخير، كان، في رأي المتفائلين، انه أعاد الاهتمام الاوروبي بالمنطقة، بعدما انفردت الولايات المتحدة، في السنوات القليلة الماضية، بـ «عملية السلام»؛ وسيئاته، في رأي المتشائمين، هي في احياء أوهام وتطلعات شعوب المنطقة، بينما الافكار، في حقيقتها، تكاد لا تتعدى اجترار ما قد تمّ مضغه مراراً.

غير ان التغيير الاكثر لفتاً للانتباه، ويستدعي اعطاء أهمية نسبية للحديث عن الدور الاوروبي، هو الموقف البريطاني الذي انعكس، على الأقل، في موقفين علنيين: الاول، دعوة رئيسة الوزراء البريطانية، مارغريت تاتشر، الادارة الاميركية الى الاسراع في دعم عملية السلام؛ والثاني، والأهم، هو ما نقلته مصادر دبلوماسية اوروبية عن وزير الدولة للشؤون الخارجية البريطانية، وليم وولدغريف، حيث كشف، لأول مرة، عن منهجية دبلوماسية بريطانية جديدة ازاء المنطقة، من ان السلام لن يتحقق قبل اعتراف الفلسطينيين باسرائيل، وقبل ان يسمح للفلسطينيين بحقهم في تقرير مصيرهم، والسماح للممثلين عنهم في المشاركة في أي مفاوضات سلام مقبلة.

في المقابل، سعت فرنسا، خلال اجتماع وزراء خارجية المجموعة الاوروبية، في تشرين الأول (اكتوبر) الماضي، في اثينا، الى حمل باقي الدول الأعضاء على الاشارة، ضمناً، الى تأييد المجموعة للخيار الفلسطيني الجديد في التعامل مع اسرائيل، على أساس قراري مجلس الأمن الدولي ٢٤٢ و٣٣٨، وتأكيد المجموعة اعتبار القرار ١٨١ قاعدة قانونية لوجود الدولتين، الفلسطينية واليهودية، على الارض ذاتها، والانطلاق من هذا القرار الى تحديد أرضية النقاش القانوني المنتظر في المؤتمر الدولي.

وبالطبع، لم تكن هذه الطروحات لتحتل مرتبة هامّة، لولا النشاط الدبلوماسي الكثيف الذي قامت به دول القارة، مجتمعة، تجاه أطراف النزاع في الشرق الاوسط ، بحيث رأى فيه مراقبون استعادة لدور اوروبا، او ربما بحثاً عن حصتها في الحل الذي قد يأتي به وفاق العملاقين. واذا ما كان السوفيات والاميركيون انتهوا الى حلول لمختلف القضايا الاقليمية، بعيداً من مشاركة اوروبية فعّالة، فالأخيرة لن ترضى بذلك في الشرق الاوسط ؛ اذ تعتبر نفسها صاحبة مصلحة حيوية مباشرة، سواء لجهة التوسع الاقتصادي أم لجهة الأمن الاستراتيجي واتفاقيات نزع الصواريخ متوسطة، وبعيدة، المدى التي تملكها، الآن، مجموعة من دول المنطقة. وما يؤكده المراقبون، هو ان اوروبا نجحت، سياسياً، في لعب دور الفارس الاسطوري الذي ايقظ «أميرة السلام» النائمة في قصر المؤتمر الدولي، وبالتالي نجحت في تنفيس الاحتقان بين م.ت.ف. والولايات المتحدة، وترطيب الاجواء فيما بينهما.

مفاصل الجسر العربي

ومن المنطق السابق عينه، يمكن القول ان هناك علاقة مطردة بين الوفاق العربي الجديد والقرار الاميركي؛ فكلّما ازداد الوفاق العربي تأصلاً وتحققاً، كلما ازداد الضغط على الولايات المتحدة